العرب
السبت 2019/07/27
السنة 42 العدد 11420

حشرة حديدية تحيل حياة أسرة عراقية إلى جحيم

«شظية في مكان حساس».. رواية الحرب بعد أن وضعت أوزارها

تكررت كثيرا مقاربات الحرب والدمار في الروايات العربية، وخاصة منها العراقية والسورية، ففي السنوات الأخيرة باتت الحرب البطل الأول لأغلب ما يكتب في هذين البلدين، لكن قلة من الكتاب تمكنوا من مقاربة الحرب بأهوالها من خلال زوايا غير معهودة ومختلفة تماما، كما الحال في رواية "شظية في مكان حساس" للروائي العراقي وارد بدر السالم.

أحمد رجب

أصبحت الحرب هي الموضوع الأكثر حضورا في الرواية العربية في القرن الجديد، وحتى لا يقع الكاتب وارد بدر السالم في دائرة التكرار أو تناول أحداث مستهلكة، آثر في روايته الأحدث "شظية في مكان حساس" أن يحكي عن بغداد ما بعد الحرب.

ذكرتني رواية "شظية في مكان حساس"، الصادرة في بغداد 2019، بمقولة الأنثروبولوجي الكندي إريك جانيون عن الألم، وإنه ليس شيئا غير الذات الموجوعة نفسها، فليست الذات إلا وعيها بالألم.

الانفجار والعري

على امتداد مئتين وخمسين صفحة تسرد الرواية رحلة أسرة عراقية مع الألم الجسدي والنفسي الذي صهرها، وأعاد تشكيلها وصياغة حياتها عقب تعرضها لمحنة استثنائية في زمن الحرب.

تحكي الرواية عن "نور" وهي امرأة أربعينية تتعرض للإصابة عقب انفجار آخر مفخخة في بغداد، بحسب العنوان الفرعي للرواية، الذي أثبته المؤلف ربما ليقول إن الحرب قد انتهت وإن روايته عن الحرب بعد أن تنتهي.

> الرواية تسرد رحلة أسرة عراقية مع الألم الجسدي والنفسي الذي صهرها، وأعاد تشكيلها وصياغة حياتها بعد الحرب

تصف الرواية يوم انفجار المفخخة بأنه "يوم الفزع الكبير الذي أحرق السوق والناس، وأحال حياتنا إلى جحيم مبهم، وعرض جسد زوجتي الخجول في المستشفيات والعيادات الطبية الخاصة إلى العيون التي رأته، وتنقلت عليه وفحصته ولمسته في أكثر المناطق سرية وعفة".

هكذا أدى الانفجار وما تلاه إلى انتهاك الجسد الذي كان "اجتماعيا ومقدسا لأنه كان سريا" لكنه "تبعثر في الانفجار، وانسلخ عنه الحياء قسرا في الفحوصات والمعالجات، والترميم والترقيع، فأزالوا عنه الحشمة، ففقد استقلاليته ليموت مؤقتا".

هذا الانتهاك تعبر عنه الرواية بكلمة "العري" التي يتواتر ذكرها كثيرا، بمعنى انكشاف الستر، سواء كانت فعلا تمارسه الزوجة التي فقدت خفرها وحياءها القروي فتقول لزوجها "أحتاجك.. خذني.. ادخلني" أو حينما يصف الزوج سلوك زوجته، ويلاحظ أن "العري" كفعل أو كلمة حضر كلما تفاقم شعور الشخصية بالعجز أو الحيرة، فجاء تعبيرا عن توتر الذات الساردة بين رغبتها في البوح وخشيتها من الفضيحة (تكرر في النص وصف الشظية بالفضيحة).

وأيضا تستخدم الدكتورة تمارا نفس الوصف حينما تتحدث عمن يقصدون عيادتها كطبيبة نفسية، باعتبارهم مصابين بفوبيا الحرب، وتقول للزوج في معرض تفسيرها لحالة نور "هذه هي الحرب، تعرينا حينما لا نكون مستعدين للعري، وتنزع منا الخجل لتكشف عن بعض ما لا يجب أن ينكشف فينا، فتجعلنا نرى في الجمال قبحا كثيرا".

يلجأ وارد بدر السالم في أغلب رواياته إلى نمط الراوي العليم، وعادة ما يجيء السرد عنده بضمير المتكلم، فيسرد الأحداث بأسلوب مباشر، وقد يتحول من راصد أو مراقب للأحداث إلى مشارك فيها، خاصة وأن الراوي في "شظية في مكان حساس" هو الزوج، وهو شريك في الأحداث وفي الألم، وأيضا في التشظي مثل الزوجة نور التي تواجه تشظيا نفسيا وبدنيا عقب إصابتها في الانفجار.

وعمد الكاتب لذلك إلى تشظية البناء الفني لروايته، فبدأ مباشرة بما يشبه المفتتح، وعبر ثماني مقاطع مرقمة، أولها حوارية قصيرة بين الأب وابنته لبنى، يبدأها بسؤال يبدو غريبا "منذ متى وأمك ترقص؟"، تجيبه "منذ أكثر من ساعة" ويلحظ الأب أن وجه ابنته اكتسى بألم مبكر، بينما يتساءل في المقطع الأخير "الرقص فرح الجسد أم ألمه؟" ويتساءل معه القارئ: لم ترقص الأم كل هذه المدة؟ وما سر حزن الابنة وألمها؟ ونجد الجواب في المقطع الأخير "ترقص في حجرتها وحيدة لتنتزع حشرة الحديد الناعمة لاهثة، دائخة الرأس، متكسرة الروح، وهي تصارع الشظية المتحركة في مكانها الحساس، لعلها تنزلق فجأة وينتهي الألم الغريب الذي اجتاحها منذ ستة أشهر".

الرقص إذن ممارسة تقوم بها الزوجة كنوع من العلاج المرجو لعل الشظية تنزلق وتغادر جسدها، أو لعله طقس تؤديه حتى تطلق روح الشظية الشريرة أسرها، لذلك تؤديه وحيدة وبعنف ولمدة طويلة منهكة.

ويفضي المفتتح إلى مقتبس من غاستون باشلار "كل شيء يرتج حين يرتعش النور"، والارتجاج يفتت الأشياء والأشخاص يحيلها إلى شظايا يلملمها الكاتب في فصلين الأول قصير، يلامس بدايات التغير الذي يصيب نفس وروح نور، والثاني يشغل نحو مئتي صفحة من متن الرواية، ويبدأ بما يسميه "فضيحة الشظية" ثم تتوالى النثارات أو الشظايا التي تبدو كل منها كتفصيلة أو جزء من لوحة فسيفساء ترصد الخراب الذي أحدثته الحرب بأرواح البشر.

حشرة الحديد

يصبح جسد نور ميدانا للحرب، فقد اخترقته شظايا كثيرة، بأحجام متوسطة وصغيرة، تم استخراجها كلها إلا واحدة، بحجم رأس دبوس، لم يستئصلها الجراح الذي برر للزوج تركه لتلك الشظية الصغيرة لحساسية الموضع الذي سكنته، وطمأنه بأنها ستزول مع الوقت أو تستقر في مكانها، لكن الشظية لم تزل ولم تستقر، وتصبح الشظية المتبقية بداخلها هي الحرب، فبعد ستة أشهر من المعاناة، تغيرت نور وكأنها خرجت من قبر إلى الحياة ثانية، تصبح أخرى غير التي خبرها الزوج لعشرين عاما، فالقروية الخجول المحتشمة تصبح امرأة أخرى تماما بفعل الشظية التي تصفها الرواية بأنها "حشرة الحديد الناعمة"، التي تتحرك في المكان الحساس فتعمل كما لو أنها عضو ذكري، تصيب الزوجة بحكة تشعرها بحاجة دائمة لممارسة الجنس، فيتحول الزوج إلى آلة جنسية، وأصبح يرى الزوجة "شظية جارحة"، لكنه رغم ما يصيبه من ألم ومن قرف يظل متعاطفا معها، ويتألم لحالها وهو يراها "تذوب من الألم وتتوحش كثيرا بسبب الحكة المهيجة"، ويراها تنهار أمام ألمها الجنسي الذي يقتلها ببطء.

يخشى الزوج أن تنتحر نور لتنهي آلامها، ويعاود التردد على المستشفيات والعيادات الطبية ما بين نفسية وعضوية حتى يقترح أحد الجراحين علاجا ناجعا يتمثل في إجراء عملية ختان لنور، فلن يستطيع استئصال الشظية إلا باستئصال المكان الحساس الذي سكنته، وفي ذلك علاج لحالتها الراهنة ووقاية من تداعيات أخطر قد تحدث مستقبلا. يتكفل الزوج بإقناع زوجته بالموافقة على إجراء العملية، فتفيض عيناها بالدمع، بينما هو يضمها إلى صدره وهو يهمس لها "هذه هي الحرب حبيبتي نور، تقص فينا أعز ما نملك".

امرأة تنتهكها شظية (لوحة للفنانة ريما سلمون)

الإنسان والمدن التي يحب

حميد سعيد
كاتب عراقي

معظم الناس، إن لم أقل معظم المخلوقات، أكثر ارتباطا بالمكان الأول، وبخاصة مدينة مسقط الرأس والنشأة، من أماكن أخرى ومدن وبلدان، ينتقل إليها المرء لأي سبب من الأسباب، بل طالما كانت مفارقة المكان الأول تحيل إلى مفارقة الجنان، حيث الفردوس المفقود، وهذا ما أشار إليه أبوالطيب المتنبي في قوله:

أبوكم آدمٌ سنَّ المعاصي
وعلّمكم مفارقة الجنان

غير أن ارتباط بعض الناس بمدن أخرى، غير مدنهم الأولى، في بلدانهم أو في بلدان أخرى، ظاهرة شائعة ومعروفة، وهي ظاهرة ثقافية واجتماعية في آن واحد، وفي الحالين لا تمس هذه العلاقة الجديدة بمدن أخرى، صدق علاقة الإنسان بالمكان الأول، بجميع مكوناته الاجتماعية والثقافية ولا تمس وطنيته.

بل طالما كانت تلك العلاقة عميقة وأفصحت عن جوهرها الاجتماعي والثقافي، ولا أقصد هنا، بعض الحنين المرضي الذي يظهر في بكائيات ساذجة أو حالات تعصب مبالغ فيه.

وليس جميع المدن قادرة على أن تضع المرء في فضاء عشقها، بل طالما كانت المدن مثل الناس، في شمائلهم وقدراتهم في استقطاب الآخرين وكسب محبتهم والتعلق بهم.

خطرت لي هذه الأفكار، بعد أن انتهيت من قراءة كتاب "من سيرة ذات.. فتن كاتب عربي في باريس" للصديق الأثير، المبدع المغربي الكبير أحمد المديني، وهو كتابه الثاني، بعد كتابه "نصيبي من باريس" الذي صدر في العام 2014، وفيهما يتناول تجربة إقامته في باريس التي بدأت في العام 1980 وهذه الإقامة مستمرة حتى الآن.

إن الصداقة التي ربطت بيننا، بدأت في العام 1973 حين التقينا مصادفة في إطار نشاط أدبي عربي بمدينة الجزائر، وتواصلت بحميمية حتى صارت مضرب مثل في الوسط الثقافي العربي، فعددته أخا، وعدَّني أخا، بل هكذا تصرفنا على امتداد زمن صداقتنا، والمديني قاص وروائي وناقد وأكاديمي، كما عمل في الصحافة وبرز فيها، تخرج من جامعة السوربون بدرجة دكتوراه دولة في الآداب والعلوم الإنسانية في العام 1990 وعمل أستاذا في جامعات مغربية وفرنسية، وصدرت له أعمال عديدة، قصصية وروائية ورحلية ودواوين شعر، ودراسات أكاديمية ونقدية وترجمات أدبية.

والمديني الذي كتب كثيرا عن باريس المدينة التي أحب، سواء في نصه الرحلي أم السيري أم في نصه الإبداعي، وأقصد في ما ورد عنها في عدد من نصوصه السردية، مع أنه جاءها متأخرا نسبيا، وعرف قبلها مدنا أحبها وارتبط بها وشكلت جذر تجربته الاجتماعية والثقافية، فمدينة برشيد فضاء طفولته وبذرة ذاكرته، أيام كان يستيقظ في طفولته فلا يذهب إلى المدرسة ويهرب إلى الحقول المحيطة بالبلدة الصغيرة الوادعة، قبل أن تكون كما هي عليه اليوم شاسعة وصناعية.

وفي ما كان مثل حيوان بري يشم الفصل الجديد وهو نائم ومع أول شعاع شمس يتسلل من فراشه لينافس الفراشات التي تحلق باكرا حول شقائق النعمان.

والدار البيضاء حاضرة المغرب الكبرى التي أدخلت المغاربة إلى المدنية الحديثة التي يقول عنها المديني: المدينة التي هزت صروحنا القديمة المتهالكة وفخخت مقدساتنا وخرافاتنا المعششة في الرؤوس.

وفاس، هي الأندلس، الماضي التليد، العلم العرفاني، هي الشمس ومغربها يشقشقان على الفسيفساء، والخَلق الفاسي كله يلثغ بلغة الماء، والملائكة ترد فوقها التسبيح من أعلى سماء.

كما تنقل بين أمداء مدن عربية، أحبها وكتب عنها، مكة المكرمة والمدينة المنورة وبغداد والجزائر وتونس والقاهرة وبيروت، ويقول عن هذه المدن "لا طاقة لي بحصر مدني أو المفاضلة بينها، هي مثل خلاني، وسأكتفي بالجمرة الأخيرة، مثوى الجمال ومهبط أسرار وإعجاز الجمال ومضمار الفتن والضلال، هي باريس".

وهو يعرف، ويعترف أنْ سبقه إلى حبها والكتابة عنها مثقفون لامعون وكتاب مبدعون من غير أبنائها، من عرب وأجانب، منهم الفقيه المغربي عبدالله الفاسي الذي جاءها في مهمة سياسية، ثم كان الطهطاوي والشدياق وبيرم التونسي وغيرهم.

ويتوقف عند إقامة الشاعر الألماني راينر ماريا ريلكه، فيها وما كتبه عنها ويرى المديني في ما كتبه ريلكه عن باريس أقرب إلى ذوقه وإحساسه، وسوى ريلكه من سلالة المبدعين الكبار، جيمس جويس وهمنغواي وهنري ميللر وبيكاسو ويونسكو وخوان غويتسللو، ولم ينس أن يذكر عربا أفذاذا، واكتفى بالراحلين منهم، طه حسين وزكي مبارك وسهيل إدريس وألبير قصري وعبدالرحمن منيف ومحمود درويش والباهي محمد، وكل منهم صنع باريسه، نسجها بعينيه وأحلامه ورصعها بأوهامه.

الشاعر راينر ماريا ريلكه جسّد التماهي بين الإبداع والأمكنة

> لطالما كانت المدن مثل الناس في شمائلهم وقدراتهم على استقطاب الآخرين وكسب محبتهم والتعلق بهم

لذا فهو يقول عنها "إن هذه المدينة لا تنفد، وإذ كتبت فيها هذا الكتاب فلأنني عشت هذه الحياة بفضلها وبجوارها وأبعد عنها أيضا".

لقد جاء كتاب "من سيرة ذات.. فتن كاتب عربي في باريس" بصيغة يوميات وبتسلسل زمني حينا أو متباعد حينا آخر حيث الإقامة في باريس، عنوان كبير تنضوي بداخله عناوين متفردة لأعلام ومعالم وأزمنة، هي جزء من سيرة الكاتب من دون أقنعة.

غير أنه ومنذ البداية، ينبه نوعا من القراء بالقول، إنهم لن يجدوا في صفحات كتابه هذا مدينة سياحية ولا في صورة انطباعاتهم المسبقة، لأنها باريس كما يراها، إذ لكل امرئ باريسه، وهذه هي باريس التي أستطيع أن أقول، التي أحبها.